الحروب والشؤون الاجتماعية(*)

لحضرة صاحب السعادة محمد سعيد لطفى بك

وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية

سيداتى ، وسادتى :

إن خير مقياس لرقى الأمم هو رقى شؤونها الاجتماعية ، وقد ترى أيها المستمع الكريم أمتين من جنس واحد أو على دين واحد ، أو تحت نظام حكم واحد ، ومع ذلك يسهل عليك أن تحكم أيهما أرقى ، وأيهما أطيب عيشا ، وأيهما أكثر فضائل وأقل رذائل .

ولما كانت الكافة فى كل الأمم فقراء ، كانت هى المقياس الصحيح لرقيها ، فقد تجد فى بلد يذوق فقراؤه الأمرين من بؤس و يأس ، فريقا قليل العدد من المترفين ينعمون بالطيبات من الرزق و يحيطون أنفسهم بمتع لا عدد لها ، كما أنك قد تجد الثقافة فى أوجها فى طبقة من رجال الدين والعلماء ، وتجد التالية محرومة من كل النوافذ التى تضىء ، بل انك لتجد مع الأسف الشديد فى بعض البلد أن طبقة مزدراة يسمونها الأنجاس ، وحاشا للا دمى أن يكون نجسا ، ولقد وصف عالم انجليزى حال فرنسا الاجتماعية أيام الثورة الفرنسية الكبرى وصفا يذيب القلوب و يدمى الأعين ، قال ان الضرائب على فداحتها قاصرة على الفقراء لأنهم لا يستطيعون دفعها ، والأغنياء معفون بحكم القانون لأنهم قادرون على دفعها ، ثم عدد هذه الضرائب وسرد هذه المظالم ، وانا لذاكرون بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر ، أولا ضريبة العشر للدولة ثم ضريبة ٥ ٪ للكنيسة وضريبة أخرى مثلها للشريف الذى يهيمن على المنطقة ، وقد حرم الاشراف على الناس أن يطحنوا قمحهم إلا فى طواحين الاشراف ، وأن يعصروا عنبهم إلا فى معصرة الاشراف ، وعليهم أن يسكتوا الضفادع حتى ينام الشريف ، وأن يطعموا كلاب الصيد ولا يردعوا الحيوانات التى تهب صيدها ، فيتركونها تأكل محاصيلهم كما تشاء ، اعتداء على الأموال والأنفس والأعراض سبب الثورة الكبرى الفرنسية ، وأشعل ثورات أوروبا فى القرن التاسع عشر ، وما كانت الحروب المتعددة فى ذلك القرن الا لتنقذ البشرية من حال لم يطق الناس عليها صبرا الى حال تصير من حسن الى أحسن لولا التطرف المعيب الذى اشتمل بعض البلدان فى بعض الأحيان ، فغسل الجرائم بالدم وانتقم من الجريمة بجريمة ، وتعددت الضحايا وكثرت الآلام .

الحالة الاجتماعية — سيداتى وسادتى — تتطور وتحلو بالعدل والهدوء والاستقرار ، وتزهو وتزدهر بالعلوم والفنون ، وتطيب بالرخاء ونمو الثروة العامة وقلة المتعطلين ، ولا تكون هنيئة إلا حيث لا تقض الأمراض المضاجع ، ولا يدفع الجوع والفقر الى الشرور ، قال

(*) المحاضرة الثانية من برنامج اذاعات الوزارة لشهر رمضان المعظم .

"تولستوى" ما معناه : ان أردت أن تحكم على حضارة أمة من الأمم، فعليك ببيوت الفقراء ، فاذا وجدتها لائقة ووجدت الأزهار فى نوافذها ، فاعلم أن الشعب ناعم سعيد ، وقال السيد جمال الدين الأفغانى : ان أردت أن تعرف أخلاق أى شعب من الشعوب فاجلس فى منتديات الطبقة الفقيرة ، فهناك ترى الغنى الذى افتقر والفقير الذى سيغتنى ، والفقير الذى لن تتغير أحواله .

والحالة الاجتماعية هى نتيجة الماضى ولا تتغير إلا ببطء ، والعوامل التى تعمل فيها متعددة النواحى من سياسية الى اقتصادية ، ومن دينية وتثقيفية الى رياضية تقرأ عنوانها فى أمثالها السائرة وفى أغانيها الشعبية ، ولعلى لا أكون مخطئا خطأ كبيرا اذا قلت إن الحروب هى المحك لاختبار كفاية الشعوب ، وها كم حربان عظيمتان وقعتا فى جيل واحد ، وكانت ألمانيا وحلفاؤها هى البادية وهى المنتصرة حتى الفصل الأخير من الرواية ، فما سر الهزيمة وقد تكررت مرتين ، وتعاقبت دفعتين ؟ السبب الأول والأهم عندى هو الخطأ فى تقدير قوة أعدائها ، فحسبت أن بريطانيا لن تصبر على القنابل المختلفة الأحجام أكثر من مائة يوم ، وظنت أن الثراء والترف سيشغل أمريكا لان تفعل كل ما فعلت ولن تقدر على اخراج ما أخرجت من عدد الحرب ، كما قدرت أن روسيا السوفيتية لن تصبر على النظام الاجتماعى الجديد بعد هزيمة ساحقة ، ولكن الانجليز صبروا على المكاره وتحملوا المصائب بشجاعة ، وأخرجت المصانع الأمريكية أكثر مما وعدت به ، ولم يغير الروس نظامهم الاجتماعى الجديد ، والمدافع الألمانية تضرب لينفراد وموسكو وسنا لنجراد ، وكانت النتيجة أن سحقت ألمانيا سحقا ودمارا من الجوع ونقص المواد مادهاها واستسلمت لحكم الأعداء . ولو أعطى الشعب الألمانى كياسة سياسية لتجنب الحربين ، ولكنه اعتاد أن يطيع الزعماء ويعبد الأقوياء ؟ فأورده الزعماء والأقوياء هذا المورد وسقوه هذه الكأس المريرة ، أما الانجليز فقد اتخذوا اجلالا للزعيم تمثال ، ولكنهم رأوا بثاقب نظرهم أن الدنيا الجديدة والنظام الجديد يتطلبان رجالا من طراز آخر ، فانتخبوا حزب العمال بأغلبية عظمى . وهاهى ذى اليابان أتقنت فنون أوروبا وعلومها واستعدت للحرب أكمل استعداد وألقت بنفسها فى تنورها حتى قبل أن الحرب تعلن ، واندفعت فى الفتح اندفاعا لامثيل له فى التاريخ ، فلما دارت الدائرة ، وآن أوان التنكيل بها التمست مخرجا ، فلما لم تجد اليه سبيلا رضيت بالهزيمة والتسليم بلا قيد ولا شرط ، ولم تتمسك الا بشرط واحد وهو بقاء الميكاد وعلى العرش وتمتعه بكامل سلطته الدستورية .

وها كم الدنمارك ، عرض عليها الحلفاء أقليمى شليزوك وهولنشتين ، وكانت ألمانيا قد اقتطعت من الدنمارك هذين الاقليمين فى حرب سابقة ، فأبت الدنمرك أن تقبل هذا الحل ورفضته ، وطلبت من ألمانيا حل المسألة بطريق آخر وهو طريق الانتخاب الحر ، فوقع الاستفتاء وبقى فى ألمانيا من القرى من أراد البقاء مع ألمانيا وأنضم الى الدنمارك من رأى الانضمام ، وفى بداية هذه الحرب هاجم الألمان الدنمارك ولم يكن الجيش الدنماركى الا

عشرة آلاف ، فقاوم أربع ساعات ثم صدر اليه الأمر بالتسليم والاحتجاج . وجنبت سويسرا والسويد نفسيهما الحرب وبقيتا محايدتين حيادا صادقا حتى انتهت . إن دلت هذه الأمثلة على شيء فهي تدل على أن لكل شعب مزاجا خاصا وحالة اجتماعية خاصة وكفايات من أنواع مختلفة ، بعضها حريص على الحرب ما أستطاع الى ذلك سبيلا ، وبعضها مصمم على ألا ينغمس فيها ، وبعضها لا يسلم اذا دخلها مهما تحمل فى سبيل ذلك من نكبات .

سيداتى وسادتى :

تحدث الحرب فى سنوات من التغييرات والتطورات الاجتماعية مالا يحدث فى السلم الا فى عشرات السنين ، ذلك لأن الحرب تكشف عن عيوب وأخطاء وعن احتياجات ما كانت لتظهر ظهور الشمس لولا الحرب .

رأت مصر فى نهاية الحرب الماضية أن لا بد لها من الاستقلال السياسى ، فطالبت به وأصرت عليه ونالت أولى مراتبه وهى تطالب اليوم باستكماله ، ورأت أن نظامها الاقتصادى غير مستقر ، وأنشأت بنكا ومصانع ، وترى بعد هذه الحرب أن تضاعف مصانعها وأن تستخرج معادنها وتكهرب آلاتها ، ورأت نقص القوت ، لذلك ستعدل ريها وصرفها وتستصلح الأبوار لتكفى نامسها أقواتها ، ورأت الأمية متسعة فبدأت بحربها ، ورأت أن تصلح شأن العمال الصناعيين والزراعيين ، فأصدرت بعض القوانين لحمايتهم ، وستصرف كل ما عندها من احتياطى للترفيه عنهم ، كذلك نظام زيادة الضرائب على الأغنياء بعد أن أعفت الفقراء وخففت عن متوسطى الحال .

من نتائج هذه الحرب تقريب المسافة بين الغنى والفقير فى كل بلد من بلدان العالم وتقريب الأمم بعضها من بعض ورفع مستوى المعيشة فى الدنيا ، ومحاربة المرض والجهل والجوع فى كل مكان .

سيداتى وسادتى

شاهدت حربين عظيمتين من الحروب العالمية ، ولا أظن الأجل يمتد بى لأشهد حربا ثالثة ، وانى لمقتنع اقتناعا تاما بأن واجبنا هو أن نصلح حالنا ونسوى أمورنا تسوية ترضى جميع المواطنين ، ويسعد فيها كل الأهلين تسوية تجعل الدنيا فى عين الفقير وتخفف آلام المريض وتقضى على الجزل ، ولا أكون مبالغا اذا قلت إن أرض مصر تستطيع أن تنتج ضعف ما تنتج وإن مصانعنا يجب أن تكفى أهلها وتكسر البلاد المجاورة ، وإن معادنها مصدر ثروة لا يقل عن الزراعة والصناعة ، ونحن يابنى قومى شعب ذكى الفؤاد يحب العمل ، فلننصرف الى ما ينفع الناس ويدر الخير على مصر ، ولكن جميعا أصدقاء متعاونين عاملين مخلصين رجاء ، أسأل الله أن يكون لنا معونا . وأن يعيد عليكم هذا الشهر المبارك بأجزل الخير وأفضله ، والسلام عليكم ورحمة الله .